أيتها الابتسامة !

للأستاذ محمود الخفيف

أتوقّاكِ ما رأيتُكِ جُهْدى   وأعافُ الوضىءَ مِنْ لَمَحاتِكْ
مثلُ لمعِ السرابِ لمحُكِ عندى
ليسَ غيرَ السرابِ أصلُ صفاتِكْ

أتوقّاكِ ، لا أسيئُكِ ... إنى
مَنْ سقاهُ العذابَ لمعُ السرابِ
أبدًا فيكِ ليسَ يُخطئُ ظنّى
بلْ يزيدُ اليقينَ فيكِ ارتيابى

أتوقّاكِ ! كمْ سحرتِ خيالى
بأفانينَ مِنْ بُروقِ الخداعِ
يومَ كانَ الفؤادُ غِرَّ الليالى   لمْ تذقْهُ الحياةُ لؤمَ الطباعِ

أىُّ معنًى للخيرِ أطمعُ فيهِ   مِنْ معانيكِ فى وجوهِ الرجالِ ؟
أىُّ طيفٍ للسحرِ لا أتّقيهِ   فى وُجوهٍ تزهى بسحرِ الجمالِ ؟

صُوَرٌ أنتِ من ضلالِ الحياةِ   وطيوفٌ بغيضةٌ أتّقيها
عِفْتُ حتّى ما حارَ من بسماتى   بينَ سُحْبٍ من الأسى تحتويها

أتوقاكِ ... كمْ لمحتِ طلاءً   يحجُبُ الإفكَ فى حنايا الضلوعِ
يحمِلُ الحقدَ ما يريدُ انطفاءً   والمداراتِ ما لها مِنْ هُجوعِ

أتوقاكِ صـورةً للتشفّى   سوأةً ميّزتْ سليلَ الترابِ
أىُّ وصفٍ لهذه أىُّ طيفٍ   غيرُ ظفرٍ تحتَ الطلاءِ ونابِ ؟!

أتوقّى مرآكِ فى وجهِ حُرٍّ   باسمٍ وهْوَ لا يُطيقُ ابتساما
وجهِ غِرٍّ ما كان يومًا بغِرٍّ   غيرَ أن الرشادَ أن يتعامى !

أتوقّاكِ فى مُحيّا دعِىٍّ   فى ابتساماتِهِ أرى الخُيلاءَ
يتبدّى يا ويحهُ من غبىٍّ   فى عُبوسٍ وفى ابتسامٍ سواءَ

وكريهٌ مرآكِ بسمةَ ذُلٍّ   فى وُجوهٍ ذليلةِ القسماتِ
تتّقى عنفَ كلِّ عاتٍ مُدِلٍّ   بكلامٍ من ضارعِ البسماتِ !

وشجىٌّ للنفوسِ مرآكِ معنًى   من معانى مُغالبٍ لهوانِ
حطّهُ الدهرُ ما ارتدى بكِ لونًا   من تأسٍّ يشفُّ عمّا يُعانى

أتوقّاكِ آيةً للوفاءِ   رُكّبتْ من تملّقٍ ودِهانِ
يا ازْلِفى فى صورةٍ نكراءِ   ذكّرتنى ضآلةَ الإنسانِ

جمرةٌ فى الحشا ورشقةُ سهمٍ   فى صميمِ الفؤادِ مرآكِ حينا
إذ يرى العاشقونَ فى غيرِ وهْمٍ   أنّ همسَ الظنونِ أمسى يقينا

إذ يرونَ الخداعَ أنقضَ ومضًا
من شُعاعاتِ خنجرٍ مشهورِ
هوَ مِنْ حـدِّهِ أحزُّ وأمضى
إنّ أنكى الجراحِ جرحُ الشعورِ

أتوقّاكِ ما لمحتِ لعيـنى
لمحةَ الكأسِ ضوّأتْ بالسُّلافِ
رُبَّ كأسٍ يعلو إليها التمنّى   مُزجتْ خمرُها بسُمٍّ زُعافِ

أتوقاكِ ! ... شدَّ ما أتوقّى   صُوَرًا منكِ عنَّ عنها بيانى
إن يكنْ عافَها حياءً ورفقًا   رُبَّ صمتٍ حوى بليغَ المعانى

أينَ يا قلبُ ؟ أين تُبصرُ عينى   بسمةً لا يكونُ منها عنائى
ويكَ يا قلبُ قد سئمتُ التمنى   وأرانى كرِهتُ فقْدَ الرجاءِ !

قد أحبُّ ابتسامةَ الطفلِ لولا   خاطرٌ ساء وقعُهُ فى خيالى
لن تراهُ الغداةَ عيناىَ طفلًا   إن فيهِ الغداةَ لؤمَ الرجالِ

وأحبُّ ابتسامةَ الزهرِ لولا   سوءُ مرآهُ ذابلًا فى المساءِ
ويحَ نفسى كم علا النفسَ هولًا   كلُّ حُسنٍ تطويهِ كفُّ الفناءِ